أهمية الترجمة وبركاتها فى التاريخ

٢ـ الترجمة فى الاســــلام

صفاتها وفهمها في أوربا

للأستاذ عبد العزيز عزت

نظرة رينان

وتتلخص آراء رينـان ومدرسته فى فهم التراث الإسلامي الذى بنى على الترجمة فى القرن التاسع الميلادى فى ثلاثة أفكار يجدها القارئ فى المحاضرة التى ألقاها رينان بباريس عام ١٨٨٣ (٢٩ مارس) ، وعنوانها « الإسـلام والعلم » ، والذى أوحى إليه هـذه المحاضرة هو مرور الشيخ الأفغانى بباريس فى ذلك الحين . فرينان نفسه يقول فى كتابه « مقالات ومحاضرات » صفحة ٤٠٣ « منـذ شهرين عرفت الشيخ جمال الدين بفضل مساعدنا الفاضل المسيو غانم ، وقليل من الناس تركوا فى نفسى أثراً كأثره . ان مناقشاتى المتعددة معه هى التى دعتنى أن أجول موضوع محاضرتى عن العلم والاسلام » هذه المحاضرة رد عليها الشيخ الأفغانى بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٨٨٣ فى جريدة الديبا وعقب على هذا الرد فى اليوم التالى رينان فى نفس الجريدة :

أولا — يقول رينـان ما ترجمته : « يمكن أن يقرر الانسان بسهولة تامة التأخر الواقعي لبلاد الإسلام ، وتدهور الحكومات القائمة على هذه البلاد ، و « انعدام الفكر » فى تلك الشعوب التى تخضع لهذا الدين فقط فى ثقافتها وفى تعليمها ، لأن الطفل المسلم حتى العاشرة أو الثانية عشرة من عمره يلحظ فيه نوع من الذكاء ؟ وفجأة عند ما ينتبه إلى تعاليم دينه ، تأخذه نزعة صوفية تنتقل به إلى نوع من الاغماء العقلى كنتيجة لتلك النعرة الجنونية : ان الاسلام هو الحق والحق وحده . لهذا يشعر المسلم فى أعماق نفسه بنوع من الاشمئزاز للتعلم والعلم ، وكذلك لفكرة الجنس والقومية لأن الأسلام يرفع الفوارق بين الأمم [1] »

ثانياً — يقول رينان ما ترجمته « إذا كان فى الحضارة الاسلامية علماء وفلاسفة ، وكانت هي أثناء عدة قرون سيدة الغرب المسيحى ، وإذا وجد حتى عهد ابن رشد تراث فلسفى يسمى تراثا عربيا « لأنه كتب بالعربية » ، فكل هذا في واقع الأمر كان تراثا يونانيا فارسيا أو بالأصح يونانيا، لأن العنصر الأساسى فيه أقبل من بلاد اليونان . إن الفلسفة وجدت دائمـا فى بلاد الاسلام ولكنها بعد عام ١٢٠٠ طغت عليها الموجة الدينية وقضت عليها ، وساد بعد ذلك علم « النجوم » لأنه وسيلة لتحديد أوقات العبادات [2] »

ثالثاً : يقول رينان ماترجمته « حركة الترجمة العجيبة التى وجدت إبان ذلك كانت كلها من وضع الفرس والنصارى ، واليهود والحرانيين ، والاسماعيليين ، والمسلمين الذين ثاروا على دينهم ، وهذه الحركة لم تلق من علماء الاسلام إلا كل اضطهاد ، لأن الاسلام فى واقع الأمر يعادى دائماً العلم والفلسفة ، وانتهى بالقضاء عليهما . الاسلام صارم يتحكم فى العبد وفى دنياه وفى آخرته ، هو ذلك القيد الثقيل الذى لم تعصب بمثله الانسانية فى تاريخها... لا يمكن أن نطلب من العلم ولا من الفلسفة احترام الاسلام ، كما لا يمكن أن نطلب من المكتشفات الحديثة والعلم الحديث احترام رجال الدين عامة [3] »

(١) أنظر كتابه « مقالات ومحاضرات » صفحات ٣٧٦ و٣٧٧

(٢) أنظر فى نفس المحاضرة وفى نفس الكتاب المتقدم ذكره صفحات ٣٧٨ و ٣٨٦ و ٣٨٩ و ٣٩٠

(٣) أنظر نفس المحاضرة فى كتابه « مقالات ومحاضرات » صفحات ٣٩٢ و ٣٩٤ و ٣٩٥ و ٣٩٦

وأصحابه ويسخر منهم ويتحداهم ، ويحملهم على مركب وعر ، ويضطرهم بين خطتى خسف فى أحكامه على الرافعى ، ويخيرهم أن يختاروا للرافعيّ طرفاً من طرفين يحسب أنه يلزمهم شناعةً من شناعاته التى سمّاها أحكاماً على الرافعى . وسنتولّج فيها لا نحب ، لا كرامةً للأستاذ الجليل أو استجابة لدعائه ، بل لميط الأذى عن نفس مطمئنة لحقت بالرفيق الأعلى راضية مرضية

ولولا أن يقال هجَا نميراً ولم نسمع لشاعرهم جوابا
رغبنا عن هجاء بنى كليب ... ...

محمود محمد شاكر

الرد على نظرية رينان

أولا — إن مايأخذه رينان على بلاد الأسلام من تأخر لايمكن أن يرجع إلى الأسلام ومبادئه ، لأن هذا الدين وهذه البادىء كانت في يوم ما من أيام التاريخ وسيلة للانتشار والحضارة والتقدم أثناء ازدهار الأسلام خاصة فى عهد الرشيد والمأمون وهو مايشابه عهد شرلمان فى أوروبا ، وأن هذا الانتشار وهذا التقدم كان له الأثر الطيب الذى لم ينكره الأوربيون أنفسهم خصوصاً فى حركة الترجمة التى قام بها علماء اليهود الأعلام في أسبانيا وآباء الكنيسة إبان القرن الثالث عشر الميلادى ، وأن مرجع هذا التأخر يعزي فى واقع الأمر إلى أسباب تاريخية محضة لا مذهبية هى : أن إغارة الترك والتتار والمغول ، وهى أمم من « عجر » الشعوب بائسة فى الفهم والحضارة ، قد عاقت تقدم الإسلام ومنعت ازدهاره (اقرأ فاجيرى عن الإسلام) ، وبجانب هذا فان الإسلام دين كسائر الأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية ، فما يؤخذ عليه يمكن أن يؤخذ على هذه الأديان ؛ ومع ذلك فهو يمتاز عنها بأنه لا يمكن للباحث أن يعثر فيه على نص يحرم به العلم والتعلم كالذى نجده مثلاً فى « الإنجيل » باب القديس بولس ، البند الخامس . ثم لا نجد فى الاسلام قوة تتوسط بين الله والعبد تسيطر عليه باسم تعالى كسيطرة الكنيسة إبان القرون الوسطى . وكذلك فى العهد الحديث نجد فرقاً بين أن يطلع القارىء على ما كتبه شيخ الاسلام فضيلة الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى عن « الأخاء فى الاسلام » — وقانون الكنيسة الصادر فى ٥ سبتمبر سنة ١٩٠٨ الذي به يحرم بيوس العاشر على أتباعه المساهمة فى الحركة العلمية الحديثة ، واضطهاد روح التجديد فى كل شيء .

ثانياً — أما أن تكون الثقافة الإسلامية فى أساسها ثقافة يونانية ، فهذا ليس بعيب على الإسلام ، لأن المطلع على نهضات الأمم فى التاريخ يقرر أن هذه النهضات بنيت دائماً على عنصرين أولاً : عنصر الإيمان الذى هو السبيل الوحيد للتسيطر على النزعات الجامحة « لقطيع » البشر والوصول بهذا الجمع الحاشد من عباد الله إلى أنبل الغايات الدنيوية والأخروية . وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الدين [1] والثاني : هو عنصر العقل الذى هو السبيل لتهذيب ملكات السادة من الناس ومن يتصدى للرياسة وهذا عن طريق العلم ، والعرب فى هذا الباب أصل من الرومان والأمم الأوربية الحديثة أولا : لأنهم خلقوا هجرة الإيمان بخلق دين « جديد » يمثل « عبقريتهم الخاصة » وطابعهم الخاص وفرضوه على الناس بالخيار ، وهذا ما لم يصل إليه من تقدم ذكرهم من الشعوب . ثانياً : أنهم مهدوا لخلق هجرة العقل وهم فى ذلك مثل سائر الأمم وإنما فاقوهم فقط فى أن ترجماتهم كانت أكمل وكانت أصح ، وعن هذه الترجمة نقلت الترجمات اليهودية والنصرانية ، وعن هذه الترجمات الأخيرة خلق أرسطو من جديد فى أوروبا إبان القرن الثالث عشر فكان « بدعة » وثنية فى وسط سادت فيه المسيحية بنزعتها الصليبية ، وهذا مهد حرب العقل الحديثة بين باكون وديكارت من ناحية ، وأرسطو العربي المغرب من ناحية أخرى [2]

ثالثاً — أما أن يأخذ رينان على حضارة الإسلام أنها حضارة بنيت على عناصر خارجية كالفرس والنصارى واليهود ... وهلم جرا ، فالتاريخ يحدثنا أن الحضارة المسيحية فى القرون الوسطى بنيت أيضا على مثل ذلك ، فالمذهب الرسمى للتفكير في المسيحية هو مذهب للقديس توماس (اطلع على مكتوب الكنيسة الصادر فى ١٤ يناير سنة ١٩٠٤) وهذا المذهب يتأثر بمذهب أرسطو وبنى فى أصله على حركة الترجمة فى القرن الثالث عشر فى باريس ، وزعيم هذه الحركة وأستاذ القديس توماس نفسه : هو القديس البير الكبير وهو ألمانى الأصل وساعده فى أبحاثه علماء اليهود فى اسبانيا لأن علم العرب انتقل إليهم فى ذلك الحين ، (اقرأ منك فى كتابه « الفلسفة العربيه واليهودية ») ولهذا عندما يهتم الكردينال مرسييه بإصلاح التعليم الكاثوليكى ضد حركة التجديد فى القرن العشرين يقول حسب تعاليم الكنيسة بتعلم اللغة العربية حتى يقف المسيحيون

(١) إقرأ جوسان « نفسية الجموع البشرية »

(٢) اقرأ أستاذنا جلس بالكليج دى فرانس « نزعة الفلسفة فى القرون الوسطى » وأيضاً « أثر فلسفة القرون الوسطى على فلسفة ديكارت » وأيضاً مقالة بويج « هل قرأ باكون الكتب العربية »

فى أوروبا على وصول مذهب القديس توماس (إقرأ مكتوب الكنيسة الصادر فى ٢٧ مارس سنة ١٩٠٦) ، ثم إن العناصر الخارجية فى أى زمان وفى أى مكان هى قانون عام بين الأمم لتبادل الثقافة. فالآن الخبراء العالميون ينتقلون من وطن إلى وطن فى أرقى الأمم المتحضرة ، والجنود المأجورة أو المساعدة فى الحروب تفعل مثل ذلك ، وفى فرنسا مثلا الآن كثير من زعماء الفكر من أصل أجنبي كالفيلسوف الخالد برغسون وكذلك مدام كرييه ، العلامة المشهور ميرسن ، بل إن أستاذ اللغة الفرنسية نفسها فى السربون (سيبويه الفرنسى) من أصل خارجى وهو العلامة فرتينا ستروفسكى ، ومع ذلك فإن أحداً من الناس لا يمكن أن يشك فى أن هناك حضارة فرنسية قائمة وأن أثرها معروف فى العالم

ومجمل القول أن رينان هذا رجل يؤمن قبل كل اعتبار بالمذهب الوضعى ، وهو مذهب « العلم » الحديث الذي يبنى على المنهج التجريبى الرياضى فى العلوم الطبيعية ، ويسعى أن يجعل من علوم الإنسان الأدبية علوماً لا تقل دقة فى أبحاثها عن العلوم المتقدمة . وهذا الفهم فى نظر أتباع هذا المذهب يناقض فى أصوله ما ساد فى تاريخ البشرية من نزعات الفكر التى تتلخص فى نظرهم فى نزعة دينية قالت بالوثنية تارة ، وبعبادة مظاهر الطبيعة تارة أخرى ، وبالتأليه تارة ثالثة ، ونزعة تجريدية خالصة يمثلها العهد اليونانى وهى تبنى كأساس على منطق أرسطو ، والفلسفة الاسلامية تتبع هذا العهد . لهذا خرج رينان على المسيحية ، ولهذا أيضاً اعتبر الترجمة فى الاسلام كنقل حرفى أى الفلسفة اليونانية « مخطوطة » بحروف عربية ، وهذه الترجمة ما هى إلا ترجمة مؤلفات أرسطو « بالذات » ، وتعاليم هذا الفيلسوف هى «الوحيدة» التى سادت التراث الاسلامى من أوله إلى آخره ، وأن هذه الفلسفة لاقت الاضطهاد من علماء الاسلام لأن هذا الدين ضد حرية الرأى والتفكير ، فعداء رينان للاسلام وترجمته وفلسفته ، عداء يتعلق إذاً بمذهبه العام الذى ساد فى فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر . لهذا لزم أن يضاف إلى ردود من عقّب على كتاباته من المسلمين رد جديد ملخص يشتق من طبيعة الآراء والمعارف فى القرن العشرين .

عبد العزيز عزت
عضو بعثة الجامعة المصرية لدكتوراه الدولة

من برجنا العاجي

فى ورقة منفصلة بين مخلفات « بتهوفن » وجدت هذه الأسطر الدامعة : « الحب ، ليس غير الحب ، هو وحده الذى يستطيع أن يجعل حياتك سعيدة . آه يا إلهى ، دعنى أجدها أخيراً ، تلك التى فى مقدورها أن تدعم فضائلى ، تلك التى قد سُمح لى أن تكون زوجتى »

ومات بتهوفن ولم يُسمح له . أترى الطبيعة عدوة الفنان، تضن عليه بما تمنحه للآخرين ؟ نعم . إنها لتقسو عليه، وإنها لتغار منه أحياناً وتقول له فى لغتها الصامتة البليغة :

— أنت تطلب إلىّ أنا أن أمنحك الحب ؟ لا ، إنى أمنحه كل الناس إلا أنت . إنى أمنحه أولئك المساكين الذين لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً ؛ أما أنت فتستطيع أنت نفسك أن تخلق « الحب » . إنك مثلى عبقرية خالقة . كل عملك فى هذا الوجود أن تصنع « الحب » وتمنحه الناس .

وهكذا تتخلى الطبيعة غالباً عن الفنانين العظام ، وتتركهم يبحثون سدى عن السعادة فلا يجدونها كما يجدها الآخرون ملقاة كالفاكهة الناضجة ساقطة تحت الأشجار . إنما هى شيء بعيد ، كلما مدوا إليه أيديهم ابتعد عنهم وتركهم يائسين . عندئذ ينكبون طول حياتهم على كنوز نفوسهم وحدائقها اليانعة يستخرجون منها للناس فاكهة من ذهب وفضة ، تقصر الطبيعة أحياناً عن تقديم مثلها . ولكن الطبيعة تنظر إلى الفنان نظرة التشفى مع بسمة السخرية

— أفهمتنى الآن ، وعلمت أن كلينا يعيش فى الحرمان ، وأن سر وجودنا أن نعطي ولا نأخذ ؟

فيقول لها الفنان فى نبرة ألم :

— نعم ، ولكنك أنت الطبيعة . أما أنا فآدمى مسكين . إنك لا تتألمين، أما أنا فأتألم ؛ إذ أرى الحياة تزول من تحت قدمى، ولم يسمح لى بحظ قليل من الهناء الذى يسخى به على الآدميين !

على الآدميين ؟ ومن قال انك منهم ؟ عند ما وضع على منكبيك رداء « العبقرية والخلود خلع عنك فى الحال بعض خصائص الآدميين !

توفيق الحكيم